توقف مرة أخرى عن الكتابة وراح يتأمل تكرار تلك الواجهات المفضية لغير مَخْبَرِهَا، كأنها لعبة مرايا، تكبّر أو تصغّر أو تملأ بما تقرره أو تفرّغ حسبما تريد. واجهة مسجد، واجهة قصر أندلسي، واجهة مدينة أوروبية، واجهة نهضة. واجهة. . . قطعت فكرته فكرة أخرى برقت في رأسه. أدهشته. كاد أن يبتسم لاكتشافه المفاجئ، ولكنه قطب جبينه، تجهّم. كيف لم أنتبه طوال تلك السنين، كيف لم تأتني الفكرة من قبل؟ الأصل ومقطوعتان منه، مقطوعةٌ فيما وراء بحر الظُّلُمات، كبيرة وتكبر، ومقطوعةٌ منمنمة صغيرة عبر بحر الروم. الباقي واجهات، أشبه بمبولة أوجيني المصنوعة من الذهب الخالص المزين بحجر كريم.

أعود لإسماعيل وقاهرته الرومية. بوابتها الكبيرة: شارع إبراهيم باشا حيث الأوبرا وشبرد والجراند أوتيل، ومن وراء البوابة حتى شاطئ النيل تمتد شبكة الشوارع في خطوط طول وعرض مستقيمة عند تقاطعها في الزوايا خلافا لمسار الحواري والأزقة في الجانب الآخر، أقصد في المدينة العربية. على المداخل مبنى البوسطة الخديوية، والمطافئ ومسرح «الكوميديا» تقليدا لمسرح «الكوميدي فرانسيز»، ثم البوابة الفعلية، الأوبرا، تفتتح المكان تماما كما افتتحته يوم الاحتفال الكبير. ابتسم الناظر. فكرة طريفة. مدينة بوابتها الجديدة صوت. أوركسترا تصدح فجأة بقرع الطبول وتداخل أصوات البيانو بالكمان والشيللو والكونترباص، والسكسافون والكلارنيت والفلوت. بداية سمفونية. ابتسم، قال: لو عاصرت إسماعيل ونقلت له فكرتي لانشرح صدره وكافأني على الفكرة. أقول له «يا خديو مصر العظيم، أتيت بجديد لم يسبقك أحد إليه. هل سمعت بمدينة يدخل كل مُريد لها عبر الصوت، صوت الموسيقى السمفونية الهادر؟!». يتدخل حاسد في الحوار قاصدا الإساءة ومنع خلعة الوالي عليّ، يقول: هذه فكرة سخيفة يا مولاي. البوابة تمنحك وجهها. باب الأوبرا يفتح على الغرب لا الشرق. كيف يقول إنها بوابة، وأية